

الجزيرة الفراتية بين الصراع الفارسي البيزنطي  
من القرن الرابع الميلادي إلى الفتح الإسلامي  
(ما قبل ٨ هـ - ٦١ هـ / ٦٢٩ م - ٦٨٢ م)

أ.د/ عفاف سيد صبره

أستاذ التاريخ الوسيط

كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر

١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م

obeyikan.com

## الجزيرة الفراتية بين الصراع الفارسي البيزنطي من القرن الرابع الميلادي إلى الفتح الإسلامي

يتناول موضوع البحث منطقة الجزيرة الفراتية والتي سنحدد موقعها الجغرافي لاحقاً - لأنها من أهم مناطق الوطن العربي الإسلامي حالياً، وتشهد ساحاتها وأراضيها صراعاً دولياً كبيراً للهيمنة عليها، لما تتمتع به من أهمية جغرافية واقتصادية وسياسية كبيرة.

ولعل ما ترم به بلاد العراق حالياً من محاولات دولية للهيمنة عليها، وفرض النفوذ السياسي على أراضيها، وانقساماتها الطائفية والعرقية، والتي تجعلنا نوجه أنظارنا إليها، داعين الله عز وجل أن يرفع عنها هذا البلاء لأنها تمثل القلب لهذا الكيان الإسلامي، فإذا توقف نبضه فستموت بقية الأعضاء، لأن معظم بلدان الجزيرة الفراتية - موضوع البحث - وجزءاً من بلاد العراق، وإن كان بعض منها يخضع حالياً لنفوذ قوى دولية أخرى مثل إيران وتركيا.

إن الأحداث المعاصرة والتي نعيشها الآن كانت حافزاً ودافعاً لاختيار هذه المنطقة في مرحلة تاريخية قبل ظهور الإسلام، حددت لها القرن الرابع الميلادي والذي يمثل فترة استقرار الأسرة الساسانية التي أعادت القوة للدولة الفارسية سنة ٢٥٨م، وكذلك يمثل هذا القرن تأسيس القسطنطينية في الشطر الشرقي للإمبراطورية الرومانية سنة ٣٣٠م.

هاتان القوتان اللتان مثلتا قمة الصراع العالمي في العصور الوسطى حيث خضعت مدن الجزيرة الفراتية لهما، وتوزعت بينهما تتقاذفها التيارات السياسية والدينية لكلا القوتين، وتلعب بمصائرهما وبانتهاهما السياسية والدينية نتائج الحروب المشتعلة بينهما.

كأن هذه المنطقة عاشت تاريخاً قديماً مماثلاً لما تتعرض له في هذه الأيام من صراع دولي على تقسيمها بين المشاركين في قهرها وإعدامها، معنى ذلك أن الصراع بين الفرس والروم في هذه الفترة التاريخية كان يحدد أوضاع وأحوال مدن وبلدان الجزيرة الفراتية.

### أولاً : الحدود الجغرافية للجزيرة الفراتية

قدم لنا الجغرافيون المسلمون آراء عديدة حول حدود الجزيرة الفراتية من مختلف الجهات.

فقد أشاروا إلى أقسامها المختلفة وحدودها بثلاثة أقسام :

#### ١- ديار ربيعة

وتتألف من الأراضي الواقعة شرق نهر الخابور الكبير المنحدر من مدينة رأس العين، ومن الأراضي التي تقع شرق نهر الهرماس المنساب في وادي الثرثار باتجاه نهر دجله، وكذلك على ضفتي دجلة من أراضي تنحدر بإنحدار النهر من تل فافان إلى تكريت جنوباً، وتشمل الأراضي الواقعة غرب دجلة حتى نصيبين الواقعة وسط الجزيرة<sup>(١)</sup>.

وتشمل ديار ربيعة البلدان التالية :

أ- جزيرة بن عمر، والتي كانت تسمى جزيرة الأكراد وتقع على الضفة الغربية من المجرى الأوسط لنهر دجله<sup>(٢)</sup>.

ب- بلد وتقع شمال الموصل<sup>(٣)</sup>.

ج- الموصل، ولها العديد من القرى وهي شمال العراق.

د- ماردين، وتقع في أطراف الروافد العليا للخابور.

هـ- دنيسير.

و- دارا، تقع إلى الجنوب من ماردين<sup>(٤)</sup>.

(١) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرانسيس، ومخاتيل عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥، ص ١١٥.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م، ج٢، ص ١٣٨.

(٣) ياقوت، المصدر السابق، ج١، ص ٤٨١.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٩٩.

ز- نصيبين، وتقع على الطريق من الموصل إلى الشام<sup>(١)</sup>.

ح- أذرمه، وهي من قرى نصيبين<sup>(٢)</sup>.

ط- كفرتوثا، وتقع على أحد الروافد التي تكون نهر البليخ<sup>(٣)</sup>.

ك- رأس العين، وتقع على نهر الخابور<sup>(٤)</sup>.

وتل موزون بين رأس العين وسروج وتل بنى سيار وتينيز وتقع على ضفة الخابور، وعرابان وتقع على الخابور، والشمانين جنوب عرايان، وماكسن على ضفة الخابور والفدين على الضفة الشرقية للنهر وواسط التي استحدثت في العصر الأموي وهي غربي الفرات، ويرقعيد قرب نصيبين ومن قرى الموصل وسنجان وتقع وسط ديار ربيعة، وتل أعفر عزب الموصل، والحضر وهما من مدن وسط الجزيرة القديمة<sup>(٥)</sup>.

## ٢- ديار بكر

وتشمل المدن التالية والتي تمتد من منبع دجلة وتشمل مدن: ميفارقين وآرزن وسعرت وآمد وحصن كيفا وفافان وثمانين<sup>(٦)</sup>.

## ٣- ديار مصر

وتشمل المدن التي تقع في غربي الجزيرة محاذياً للفرات من سمسياط حيث يغادر سلاسل الجبال منحدرًا إلى عانة مع السهول التي يسقيها نهر البليخ رافد الفرات المنحدر من حران<sup>(٧)</sup>.

وهذه المدن هي: جسر منبج، قلعة الدوسر، الرقة، الخانوقة، قرقسيا والرحبة وآلوسه، وهيت والرهاوسروج وحران وجروان.

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٨.

(٢) ياقوت، لمصدر السابق، ج١، ص ١٣٢.

(٣) ياقوت، المصدر السابق، ج٤، ص ٤٦٨.

(٤) ليسترنج، المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٥) انظر ياقوت، المصدر السابق، ج٢، ج٣، ج٤، الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م، ج٢، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٦) ليسترنج، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٧) المرجع السابق، ص ١١٥.

## ثانياً : عناصر السكان في مدن الجزيرة الفراتية

ازدحمت مدن الجزيرة بعناصر سكانية وطوائف عرقية عديدة. ولعل هذه السمة كما أوضحنا هي الغالبة حتى أيامنا هذه على هذه البلاد وسنحاول تحديدها بصورة عامة حيث تشمل:

١- العرب : وكانوا يشكلون في هذه الفترة غالبية سكان الجزيرة الفراتية، حتى إنها عرفت بيت عربية لكثرة العرب فيها، وكان بعضهم مستقراً والبعض من البدو وقد تعددت وتناثرت قبائلهم<sup>(١)</sup>.

٢- السريان أو الآراميون : وهم من الشعوب السامية التي استقرت في منطقة الجزيرة الفراتية قبل الإسلام وساهم اليونان بهذا الاسم أثناء ترجمة التوراة إلى اليونانية، وقيل أنهم تركوا إسمهم القديم بعد اعتناقهم النصرانية وتسموا بالسريان وانقسموا بحسب المذهب إلى سريان مشاركة وهم النساطرة وسريان مغاربة وهم اليعاقبة ولغتهم هي الآرامية التي عرفت بالسريانية وانتشروا في عدد من مدن الجزيرة الفراتية، وقد يكون انتشار النصرانية بينهم بسبب اختلاطهم بالعرب المنتصرة من رعايا الفرس، وانتشر بينهم بشكل خاص المذهب النسطوري، وذلك بتأثير مدرسة نصيبين<sup>(٢)</sup>.

٣- الأكراد : كانوا أحد عناصر سكان الجزيرة، استقروا في عديد من مدنها قبل الإسلام فنزلوا ماردين وكفر عزي وجزيرة الأكراد التي عرفت فيما بعد بجزيرة بن عمر<sup>(٣)</sup>.

٤- الفرس : وهم عنصر آخر من عناصر السكان نزلوا في عدد من مدنها وعلى رأسها سنجار وظل منهم بقايا في المدن التي خضعت للفرس مثل نصيبين.

(١) سعاد العمري، الجزيرة الفراتية من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، دراسة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤١٦ هـ ص ١٣٥.

(٢) سعاد العمري، المرجع السابق، آرثر كريستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٧، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٣) بيغوليفسكيا، نينا فيكتور فنا، العرب على حدود بيزنطة وإيران، ترجمة صلاح الدين عثمان، الكويت، ١٩٦٤، ص ٩٠ - ٩١.

٥- الروم : وكانوا من المناطق البيزنطية أو من المناطق التابعة لها وشكلوا أبرز سكان الجزيرة<sup>(١)</sup>.

وبعد إستعراضنا لحدود الجزيرة الفراتية وما شملته من مناطق وبلاد وعناصر سكانها نود أن نحدد طبيعة القوى التي سيشملها البحث والذي تحددت له الفترة من القرن الرابع حتى الفتح الإسلامى لهذه البلاد فى القرن السابع الميلادى.

كانت القوى السياسية التي جاورت الجزيرة الفراتية ونشرت سلطانها السياسى والحربى عليها تشمل :

أ- الدولة البيزنطية : أو الدولة الرومانية الشرقية.

اتخذت الدولة الرومانية مسارها ناحية الشرق منذ عصر الإمبراطور دقلديانوس ٢٨٤ - ٣٠٥م حيث اتخذت من نيقوميديا عاصمة لها، وبعدها وفى عصر الإمبراطور قسطنطين الكبير قام بتأسيس مقر وعاصمة للإمبراطورية الرومانية فى الشرق وهى مدينة القسطنطينية، وذلك عام ٣٣٠م حيث تقع على البسفور وعند التقاء قارتى أوروبا وآسيا<sup>(٢)</sup>. وبذلك تقاربت دولة الروم مع هذه البلدان التي تجمعها الجزيرة الفراتية، وبدأت فى فرض سلطانها السياسى عليها، علماً بأن معظمها كان خاضعاً من قبل لسلطان روما.

ب- الدولة الفارسية الساسانية.

قامت هذه الدولة بعد انتهاء الأسرة البارثية فى ٢٢٦م على يد أردشير بن بابك الذى قتل الملك البارثى أرتبان الخامس وكون ملكاً لأسرته الساسانية ويذكر أنه وطئ بقدمه رأس الملك الأعظم<sup>(٣)</sup>. وإذا اعتبر البيزنطيون أنفسهم خلفاء قياصرة الرومان، اعتبر الساسانيون أنفسهم خلفاء قورش سنة ٥٥٩ ق.م<sup>(٤)</sup>.

(١) بيغوليفسكيا، المرجع السابق.

(٢) Ostrogorsky, History of the Byzantine state, Oxford, 1965, p.40.

(٣) محمد عبد القادر محمد، إيران منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامى، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ط١، ١٩٨٢، ص١٦٣.

(٤) زبيدة عطا، الدولة البيزنطية من قسطنطين إلى أنستاسيوس، دار الفكر العربى، القاهرة، ط١، ١٩٧٧، ص ٧٩.

ومنذ القرن الثالث الميلادي بات الخطر الفارسي ملموساً وظل مصدر حيرة وإرباك للدولة البيزنطية، فالنضال ضد أكاسرة فارس يعتبر أهم ما واجه البيزنطيين من مشاكل حربية وسياسية<sup>(١)</sup>.

بدأت القوات البيزنطية والفارسية تتطلعان بعين ملؤها الشر، وتناوران من أجل الحصول على حليف في هذه الأقاليم وسعت كل منهما لتدعى لنفسها قراراً من السيادة على المناطق المتاخمة للولايات الرومانية، ورغم أن العلاقات بين الفرس والرومان على الجبهة الشرقية قد اتسمت بطابع التيقظ والحذر والنزاع المستمر، إلا أن الفرس كانوا يمثلون للرومان خصماً يختلف تماماً عن أولئك البرابرة الذين أغرقوا الإمبراطورية بسيل طوفانهم العرم، فقد كان الفرس أصحاب تقاليد مرعية وحضارة تقابل حضارة العالم اليوناني الروماني، حتى أنه كان في مقدور المؤرخ الروماني ثيوفيلاكس "القط الأفطس" أن يكتب في نهاية القرن السادس قائلاً: "منذ البدء قضت العناية الإلهية أن تزدان الدنيا بعينين مضاءتين، مملكة الرومان القوية القادرة، ووصولاً الحكمة الفارسية"<sup>(٢)</sup>.

أصبحت منطقة الجزيرة الفراتية من مناطق النزاع ومطمعاً لهاتين القوتين العظميين، حيث دار الصراع طويلاً بينهما وكانت بلدان الجزيرة هي الغنيمة والريح الذي تتحصل عليه القوة الغالبة.

ولقد كان للموارد الاقتصادية التي تتمتع بها مدن الجزيرة أن ساعدت على زيادة المطامع خاصة ثروتها الحيوانية، ومراعيتها وأرضها الزراعية، وما اشتهرت به من صناعات إضافة إلى شبكة الطرق التجارية التي تتحكم فيها.

كانت ديار ربيعة التي امتدت من شمال تكريت والموصل إلى نصيبين وسنجار وبازبدي تحت السيادة الفارسية أما ديار بكر وديار مضر، وجزء من ديار ربيعة من ضمنها رأس العين فقد بقيت في أكثر الأوقات تحت السيادة البيزنطية<sup>(٣)</sup>.

ونود أن نوضح أن هذه السيادة لم تكن ثابتة طوال فترة البحث وإنما كانت تتغير

(١) Cam – Med – Hist, Vol., X11, p.109.

(٢) هسي، العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبد الحميد، القاهرة، دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٢، ص ١٠٢.

(٣) محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ١٧٨.

وتتبدل حسب العمليات العسكرية والتي كانت تحدد المهزوم من المنتصر، وحسب اتفاقيات الصلح التي كانت ترسم الحدود فيما بينهما.

وسوف نتبع شكل الصراع الذي دار بين القوتين لنوضح أن الجزيرة الفراتية كانت هي الأرض التي اشتعلت فوقها نيران الحرب وكانت هي الغنيمة والربح الذي تحصل عليه القوة الغالبة.

### ج- القبائل العربية المجاورة

نقصد بالقبائل العربية قبيلتا الغساسنة والمناذرة. فقد كان على حدود كلا الدولتين تعيش قبائل بدوية عربية، فعلى الحدود الرومانية كان بنو غسان الذين هاجروا من اليمن واستوطنوا أرض حوران حيث كان هناك قوم عرفوا بالضجاعة قد استقروا هناك ورضخوا لحكم الرومان ودانوا بالنصرانية قبل مجيء بنى غسان ثم اعترفت الدولة البيزنطية بهم ووضعتهم تحت حمايتها واتخذتهم أعواناً لها ضد المناذرة والفرس، وكان ذلك زمن الإمبراطور البيزنطي انستاسيوس أواخر القرن الخامس<sup>(١)</sup>.

ويذكر جيون أن اعتناقهم المسيحية يرجع لتأثير الديرين المسيحيين كسيمون العمودي والرهبان الذين عاشوا في الصحراء السورية، واستغلتهم بيزنطة لحماية طرق التجارة، والتصدى لغزوات الآخرين، كما وجدت فيهم أداة صالحة لحماية حدودها ضد توسع الفرس<sup>(٢)</sup>، وأصبحوا دولة حاجزة Buffer State، كما أصبحوا يجمعون الضرائب من القبائل العربية الأخرى القريبة منهم ويقدمونها للروم<sup>(٣)</sup>. ومن أبرز ملوكهم الحارث بن جبلة ٥٢٨ - ٥٦٩م المعروف بالأعرج والذي عاصر من أباطرة بيزنطة الإمبراطور

(١) محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ط٣، ١٩٨٢م، ص ٥٦٤، أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط٤، ١٩٨٤، ص ٢٣٧.

(٢) جيون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، ١٩٦٩، ج٦، ص ٣٣.

(٣) مهران، المرجع السابق، ص ٥٦٢.

جستينيان ٥٢٧ - ٥٦٥ م<sup>(١)</sup>. ومن أكاسرة الفرس قباذ ٤٤٨ - ٥٣١. وكسرى أنوشروان ٥٣١ - ٥٧٨ م، ومن أمراء الحيرة المناذرة المنذر الثالث ٥٢١ - ٥٥٤ م<sup>(٢)</sup>.

ولقد استخدم الفرس في المقابل قبيلة عربية أخرى وهم بنو لحم، أدت لهم نفس الوظيفة فاستقرت في الحيرة وكونت مملكة قوية في جنوب بابل تدين بالولاء لهم وهم المناذرة ولقد غمرت مملكة المناذرة بحكم موقعها الجغرافي هذا بالقرب من بابل القديمة، وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من الكوفة في نهاية طريق يمتاز شبه الجزيرة العربية، فأصبحت مركزاً مهماً للقوافل، لم يسع الساسانيون إهماله، ومن ثم فما تكاد تقيم فيه سلالة عربية حتى يضعوها تحت حمايتهم<sup>(٣)</sup>.

ولقد اشتبكت كلتا القبيلتين في صراع دائم لحساب فارس وبيزنطة ووصلت كلتاها إلى أوج مجدها في نهاية القرن السادس، كما ذكرنا في عهد الحارث بن جبلة الغساني والمنذر بن ماء السماء في الحيرة.

وتعتبر هذه القوى المجاورة هي المحركة للأوضاع السياسية ولنوع السيادة على مناطق الجزيرة الفراتية وهي القوى التي استعرت الحروب على أراضيها.

### الصراع البيزنطي الفارسي وأثره

#### على التبعية السياسية لبلدان

#### الجزيرة الفراتية

أولاً : على عهد أسرة الإمبراطور قسطنطين الكبير ٢٢٧ - ٢٧٨ م

عندما انتهى الإمبراطور قسطنطين الكبير من الحروب التي خاضها ضد خصومه السياسيين، قام بتوحيد الإمبراطورية تحت رايته، وبدأ يتحرك ناحية أعداء الدولة الخارجيين، وكان أبرزهم الفرس الذين كانوا سبباً رئيسياً في اتجاه الأباطرة ناحية الشرق، وذلك لأنهم استولوا على كثير من ممتلكات الروم هناك خاصة في منطقة الجزيرة الفراتية

(١) نولدكه، تيودور، أمراء غسان من آل جفنة، ترجمة قسطنطين رزق، وبندلي خورى، بيروت، ١٩٣٣، ص ٩.

(٢) نولدكه، المرجع السابق، ص ١١.

(٣) مهران، المرجع السابق، ص ٥٧٩.

وأرمينيا، كما شاركه أبناؤه من بعده قسطنطين الثاني، وقسطنطين وقسطنطيوس.

في هذه الفترة تولى عرش فارس كسرى سابور الثاني ٣٠٩ - ٣٧٩م، وهو من أقدر ملوكهم حيث استمر يحكم سبعين عاماً، ولقب بسابور العظيم<sup>(١)</sup>. واشتهر باسم سابور ذي الأكتاف لما حققه من انتصارات على القبائل العربية اليمينية<sup>(٢)</sup>. وترك لقسطنطيوس بوصفه حاكم الشرق أمر التصدي له خاصة أن قسطنطين الكبير كان قد أعد حملة لقتال الفرس قبل وفاته.

بدأ قسطنطين الثاني الحرب الفارسية في عام ٣٣٧م بعد اجتماعه بشريكه حيث اتجه إلى نصيين الفراتية، وأعاد تنظيم جيشه بها، وأمد فرقه بزرد مدرعة وطالب الولايات بزيادة إمداداتها بقوات المقاتلة، وفي نفس الوقت عقد تحالفاً مع أرشاك الثاني ملك أرمينيا الذي كان قد فر إلى بلاده، ولجأ إلى الرومان بسبب الغزو الفارسي لبلاده وصحبه عدد من نبلائه، وعبر الإمبراطور نهر تجريز بثلاث جيوش، وتركهم الإمبراطور يمرون إلى أن أصبحوا قرب سنجار وأصبح بينهم، وبين الجيش الإمبراطوري مسافة قصيرة وبدأ القتال الحقيقي في سنة ٣٤٤، وكانت أفضل الفرق الإمبراطورية غير موجودة لذلك أمر الإمبراطور جنوده بالانتظار خاصة وأن الفرس كانوا يسيطرون على منابع الماء، ولكن العطش دفع الجند لعدم الاستجابة لأمر الإمبراطور فهاجموا المعسكر الفارسي وحققوا انتصاراً سريعاً وفر سابور إلى تجريز، ولكن الفرس عند الماء استطاعوا جمع شتاتهم، واستعادة معسكرهم، فإن هزيمتهم الأولى اضطرتهم لالتزام الراحة والهدوء فترة ثم العودة للهجوم فهاجموا نصيين الفراتية أثناء ثورة ماجنتيوس وقاومهم أسقف المدينة

(١) محمد عبد القاهر، المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٢) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٤٥، الكرديزي، زين الأخبار، ترجمة عفاف زيدان، القاهرة، دار الطباعة المحمدية، ط ١، ١٩٨٢، ص ٣٨.

يذكر أنه عندما بلغ العرب خبر موت هرمز قدموا من بلاد عبد قيس والكاظمة والبحرين ومكثوا في إيران شهراً وأطلقوا أيديهم للسرقة وقطع الطرق، وعندما بلغ شابور ذو الأكتاف السادسة عشرة من عمره جمع جيشاً وتوجه إلى ديار العرب وقتل الكثير منهم حتى كف أيديهم عن الناس ثم إستن سنة فأمر أي عبد عربي يؤتى به من أي مكان فليقبوا كتفه وليعلقوا فيها حلقة، ولهذا السبب كانوا يلقبونه بذى الأكتاف وباللغة الفارسية "هو به سنبان".

يعقوب واضطروهم للانسحاب<sup>(١)</sup>. تجدد الصراع مرة أخرى عام ٣٥١م رغم توقيع معاهدة الصلح سنة ٣٥٠م، وقدم الوالي الروماني للتفاوض مع الفرس، ولكن سابور كان قد بيت النية على مهاجمة الأراضي البيزنطية، ومهد لذلك بعقد اتفاقية، وطلب من الإمبراطور استعادة مناطق نهر العاص وأرمينيا وهدده في حالة رفضه القيام بعمل حربي ضده وكان القائد الروماني هذا يتصدى له فقد جاوز مرحلة الشباب، وازداد موقف الرومان سوءاً بفرار أحد القواد مع فرقته، وانضمامه إلى الفرس، فتقدم سابور إلى الأراضي الفراتية واستولى على آمد "ديار بكر" ونهب أراضيها، ثم استولى على سنجار، وجزيرة بن عمر، وصار للفرس اليد الطولى في الأراضي الفراتية<sup>(٢)</sup>.

قام الفرس بقتل أعداد غفيرة من سكان مدينة سنجار وأسروا جميع سكانها ومن بقى حياً من الفرق الرومانية أمر سابور بنفيهم إلى بلاد نائية<sup>(٣)</sup>.

ومن بين الأسرى الذين تم أسرهم عدد من النساء وكان من بينهم زوج المستشار جروجاسيوس وهي امرأة جميلة جداً وكانت ترتعد خشية أن يغتصبها المنتصرون، فأمر الملك بإحضارها عنده ثم وعدّها بأن ترى زوجها عن قريب، وبأن أحداً لا يستطيع أن يعتدى على عفافها، وكان يأمل من ذلك حث هذا المستشار على تسليم مدينة نصيين إلى الفرس<sup>(٤)</sup>.

وهكذا استخدم الفرس وسائل الحرب والحيلة والضغط النفسية على الرومان من أجل التخلي عن مدن الجزيرة الفراتية.

قرر قسطنطينيوس الخروج بنفسه للحرب، وأمر الفرق الموجودة في الغال بالانضمام إليه، لكن جوليان رفض فقرر الخروج ومحاسبته وانتظر ليرى ما يقوم به سابور، لكن أنباء بلغته عن تراجع سابور وأنباء أخرى عن جوليان، فاضطر لسحب قواته من آسيا والتوجه إلى الغرب حيث وافته منيته<sup>(٥)</sup>.

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٢) Ostrogorsky, op.cit, p.47.

(٣) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٢٣٨.

(٤) المرجع السابق.

(٥) Ostrogorsky, op.cit, p. 45.

عندما تقلد جوليان العرش في ١١ ديسمبر سنة ٣٦٠م قرر خوض الحرب ضد سابور لاستيلائه على ممتلكات البيزنطيين في الجزيرة الفراتية، فوصل إلى انطاكية سنة ٣٦٣م ولكن أهلها أحرقوا معبد دافين، فأثاروا غضب الإمبراطور عليهم، واتجه بعد ذلك إلى هيرا بوليس عبر الفرات<sup>(١)</sup>.

خرج سابور على رأس جيشه لملاقاته، وكان جيش جوليان يبلغ خمس وستون ألف مقاتل، وانضم إليه الأسطول الذي يقوده القائد قسطنطيوس عند الفرات، وقرر جوليان مهاجمة العاصمة، وعدم مواجهة القلاع التي يستغرق فتحها وقتاً، ورغم قطع الفرس للأهوسة وتدمير بعض الفرق فإن الإمبراطور تقدم وهزم جيشاً فارسياً وأجبرهم على التراجع داخل أسوار المدينة، وعرضوا على الإمبراطور السلام لكنه رفض تشبهاً بالإسكندر المقدوني، فقام الفرس بإحراق الأقاليم أمامه.

قتل جوليان أثناء هذه الموقعة الفارسية دون أن يحقق نتيجة، وذلك سنة ٣٦٣م حيث لم يستمر في الحكم غير عامين<sup>(٢)</sup>.

كان لمقتل جوليان في المعركة وتولية جوفيان ٣٦٣ - ٣٦٤م أكبر الأثر على تحرك الفرس في ظل حكم كسرى سابور الثاني وذلك لمهاجمة الجيش الإمبراطوري، كما هاجم الجيش فرسان العرب الذي أبى جوليان أن يدفع لهم الجزية إذا انضموا إليه، وتحطمت أفضل الفيالق الإمبراطورية، واستطاع البيزنطيون صد الهجوم، ولكن عاود الفرس الهجوم الذي استمر أربعة أيام عانى الجنود فيها من الجوع والعطش وأرسل سابور يعرض السلم، فوافق جوفيان، وبعد أربع أيام من المفاوضات عقد صلحاً لمدة ثلاثين عاماً يقضى باستعادة الفرس للولايات الواقعة وراء دجلة، وكذلك على مدينتي نصيبين وسنجان من مدن الجزيرة الفراتية وتعهد بعدم التدخل في شئون أرمينيا وتركها لفراس<sup>(٣)</sup>.

كانت هذه الشروط المهينة مثار غضب الجميع، حتى إن أحد الجنود صاح أنه يفضل

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٢) أسدرستم، الروم في سياساتهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم، بيروت، ١٩٥٥، ج١، ص ٧٦.

(٣) Ostrogosky, op.cit, p. 47, Cam - Med - hist, Vol. I, p.25.

أن يقاتل عشر مرات على أن يقبل هذه الشروط وكان دافع الإمبراطور لقبولها الاحتفاظ بقواته سليمة حتى يصل إلى العاصمة ويتمكن من مواجهة أى مغتصب قد يتصدى له، ولقد بكى أهل نصيبين وتضرعوا إلى الإمبراطور إلا يسلمهم للفرس، لكنهم أصروا على تمسكه بالمعاهدة، وقد رفض السناتو الروماني قبول تلك الشروط المهينة<sup>(١)</sup>.

حرمت بيزنطة إزاء ذلك من أى تدخل، ولم يكن منتظراً أن ترضى بهذا الموقف، فلم تكف طوال تلك المدة عن إثارة الفتن، وكان ذلك على عهد الإمبراطور فالنثيان الذى حكم الجزء الغربى من الإمبراطورية عام ٣٦٤م وشاركه فى حكم الجزء الشرقى أخاه فالنز فى نفس العام.

كان لموقف بيزنطة من الفرس أن دارت بينهما موقعة بيفان Bayvan التى انتصر فيها فالنثيان، وتم عقد سلام بين الطرفين استمر حتى عهد ثيودسيوس الثانى ٤٠٨ - ٤٥٠م<sup>(٢)</sup>.

### الصراع البيزنطى الفارسى وأثره

#### على مدن الجزيرة الفراتية

#### على عهد أسرة ثيودسيوس

اعتلى الإمبراطور ثيودسيوس الأول العرش البيزنطى سنة ٣٧٩م وذلك بعد موت سلفه فالنز فى موقعة أدرنه والتى كانت ضد القوط الغربيين سنة ٣٧٨م. وبموته انتهت أسرة قسطنطين، وبدأت أسرة جديدة أسسها ثيودسيوس الأول والذى حكم حتى عام ٣٩٥م. وفى عهده تم عقد معاهدة سلام مرضية مع فارس ضمنت له فترة غير قصيرة من الهدوء والسلم استمرت حتى عهد ثيودسيوس الثانى ٤٠٨ / ٤٥٠م<sup>(٣)</sup>.

أما بالنسبة للدولة الفارسية فقد استمر هذا السلام معمولاً به علماً بأن الملك الفارسى سابور الثانى توفى ٣٧٩ وخلفه مجموعة من الأكاسرة الضعاف وهم أردشير الثانى ٣٧٩ / ٣٨٣ وسابور الثالث ٣٨٣ / ٣٨٨ وبهرام الرابع ٣٨٨ / ٣٩٩ وأهم فترة فى حكم

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٥٩، أسدرستم، المرجع السابق، ج١، ص ٨٤-٨٥.

(٢) Vasilev, A History of the Byzantine p. 67 empire, Vol., I, Madison, 1964.

(٣) جوزيف نسيم، تاريخ الدولة البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٨م، ص ٦٣.

هؤلاء هي الفترة التي حكم فيها بهرام الرابع والتي اقتسم فيها الفرس مع الرومان ملك أرمينيا، فدخل قسمها الشرقي وهو أكبرها تحت حماية فارس وقسمها الغربي تحت حماية الرومان<sup>(١)</sup>.

ولابد أن نوضح هنا مدى العداء الذي كان يكنه الفرس للنصارى سواء من الرومان أو غيرهم، وكانت الاضطهادات عنيفة عليهم منذ عام ٣٣٩م حتى وفاة سابور الثاني، فقد وقع الاضطهاد خاصة في ولايات الشمال الشرقي المتاخمة للإمبراطور ولابد أن نشير هنا أن المسيحية لم تكن قوية في معظم مناطق الجزيرة الفراتية، لكن بعضها مثل الرها كانت بها جاليات نصرانية كبيرة<sup>(٢)</sup>.

تولى يزيدجرد حكم فارس ٣٩٩/٤٢١م وقد اتسمت فترة حكمه الأولى بالتسامح مع النصارى ويؤكد على ذلك ابنه بهرام الثاني في حديث له عن والده الذي ستتغير سياسته مستقبلاً تجاه النصارى بقوله "إن أباه كان قد افتتح أمرهم باللين والمعدلة فجحدوا ذلك أو منهم من جحدته ولم يخضعوا له خضوع الخول والعبيد للملوك، فأثاره ذلك إلى الغلظة وضرب الأبخار وسفك الدماء"<sup>(٣)</sup>.

ومن الأمثلة التي تؤكد السياسة السمحة التي سار عليها يزيدجرد في بداية حكمه تجاه المسيحيين خاصة في مناطق الجزيرة الفراتية أنه أخذ ثيودوسيوس الثاني وهو طفل قاصر تحت حمايته، وذلك علامة على المجاملة التي ليس لها في الواقع قيمة عملية، فأقر الملك الفارسي بضرورة وضع حد للنزاع بين الدولة ورعاياها النصارى ليعيشوا هادئين وأرسل وفداً برئاسة ماروتا أسقف ميافارقين الفراتية والمعين من قبل الإمبراطور البيزنطي إلى كسرى يزيدجرد بإعادة بناء الكنائس المخربة، وإطلاق سراح المسجونين بسبب عقيدتهم من النصارى، وبعد عدة سنوات من ذلك بعث يهب الله الخليفة الثاني لإسحق إلى القسطنطينية لإتمام الصلح بين الإمبراطوريتين<sup>(٤)</sup>.

(١) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٢٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٣) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٥٧.

ولعل سياسة يزدجرد المسالمة هذه مع نصارى المنطقة كانت تعكسها أسباب سياسية فإنه بتوطيد السلام مع الإمبراطورية الشرقية، كان يستطيع أن يجمع جهوده في تقوية السلطة الملكية.

تحطم السلام القائم بين الفرس والبيزنطيين في نهاية عهد يزدجرد نتيجة لتصرفات بيزنطة وأساقفتها، مما اضطره لاتخاذ موقف مضاد، ومنها أنهم عتوا وتحذوا الرأي العام حتى لم يكن هناك مفر من مقابلة الشر بمثله.

ويرجع السبب مباشرة إلى أن أرمينيا اتخذت في هذه الفترة طابعها المسيحي، وكتبت أبجديتها، وترجم الإنجيل إلى اللغة اللاتينية، وأخذت بيزنطة تعمق الشعور الديني لدى المسيحيين في شطرى أرمينيا سواء القسم الخاضع للفرس أو بيزنطة، فسعت إلى إقامة الكنائس المسيحية إلى جانب تدخلها لنصرة المسيحيين المضطهدين في أرمينيا، فأدى هذا إلى تجدد العداء، خاصة بعد أن هرب عدد من المسيحيين إلى الأراضى الرومانية، ورفض الإمبراطور تسليمهم<sup>(١)</sup>.

بعد وفاة كسرى يزدجرد سنة ٤٢١م بدأت سلسلة من المذابح تجاه المسيحيين قام بها ابنه بهرام الخامس فأرسلت بيزنطة قوات بقيادة أردابورس Ardaburus حيث التقت بالقائد الفارسي نارسيس في ارزنجان<sup>(٢)</sup>، وفي سبتمبر سنة ٤٢١م تراجع نارسيس إلى نصيبين الفراتية. وتقدم أردابوروس إلى آمد "ديار بكر" ثم حاصر نصيبين وذهب بهرام بنفسه لرفع الحصار، وأرسل إلى الغرب المنذر ملك الحيزة لمهاجمة أراضى سوريا، وذلك للعلاقة الحميمة التي تربط بهرام بالمنذر بن النعمان<sup>(٣)</sup>.

غرق عدد من العرب في الفرات والباقيين حاقت بهم الهزيمة، وعند اقتراب بهرام تراجع القائد الروماني، وعبر الحدود واستمر القتال لمدة شهر وشعر الإمبراطور

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٢) المرجع السابق.

Ostrogorsky, op-cit, p. 51, Vasiliev, op.cit, p.95.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب، ج١، عصر ما قبل الإسلام، الإسكندرية،

ثيودوسيوس أن الحرب لن تأتي بنتيجة حاسمة، ففضل التفاوض ولكن بهرام أراد نصراً أولاً ليحصل على شروط مجزية من الرومان، فأمر جيشه بالقتال، واحتفظ بالسفراء عنده إلى أن تنتهي الحرب، وكان لانتصار الرومان بعد ذلك أن اضطر بهرام لفتح باب المفاوضات من جديد، وقرر الطرفان وقف الاضطهاد وعقدوا صلحاً لمدة مائة عام في ٤٢٤م وكان مما تضمنه عدم استغلال العرب الخاضعين لكلا الطرفين في العدوان، ولعل هذا الشرط كان مستحيلاً لأن بهرام تربى على يد النعمان والد ملك الحيرة المنذر بن النعمان وهو الذي حمل كهنة الفرس على تنويجه<sup>(١)</sup>.

لم يدم السلم طويلاً إذ بنى الرومان في سنة ٤٣٨م قلاع ثيودوسيوس في أرمينيا، ولما تولى كسرى الجديد يزدجرد الثاني في نفس هذا العام قرر استغلال أوضاع هذه الإمبراطورية السيئة في الغرب فعبّر الحدود عند نصيين وهاجم عدداً من المدن في سوريا وبذلك كانت مدن الجزيرة الفراتية الخاضعة للفرس تتخذ قواعد للهجوم العسكري على مناطق عديدة.

وقد اجتاحت قوات أخرى أرمينيا الرومانية سنة ٤٤١م ولم يكن لدى الرومان جيوش كافية لإيقافهم، فتم عقد صلح لمدة عام في مقابل مبلغ من المال والوعد بتسليم بعض المسيحيين الهاريين اللاجئين لبيزنطة<sup>(٢)</sup>.

وقد تعرضت مدن الجزيرة الفراتية خاصة جالياتها المسيحية في السنة العاشرة من حكم يزدجرد الثاني لحركة اضطهادات وبدأ رجال الدين بهذه البلاد الدعوة إلى جهاد الفرس وسادت هذه الموجة في أرمينيا أيضاً، ولكن تباغض الأسرات الكبيرة فيها حال دون تحقيق ذلك، فظلت أرمينيا مشتتة عدة سنوات<sup>(٣)</sup>.

(١) الكرديزي، زين الأخبار، ويذكر أن يزدجرد والد بهرام كان مشهوراً بالقسوة وتعذيب الناس ولم يعدل في الرعية واستولى على أموالهم، ورزق بابل فأساه بهرام وكان شديد الرشد والنجابة، وكان هو الابن الوحيد ليزدجرد، فكان يخشى عيه مغبة أن يفسده يوماً من سوء طبعه، فأعطاه إلى أمير العرب النعمان بن المنذر بن عمر بن ربيعة ابن مضر، فأخذه إلى أرض الحيرة ورباه ورعاه وشيد له قصرى الخورنق والسدير، انظر جـ ١، ص ٤٠.

يذكر كريستنسن ص ٢٦٠: أنه إن كان قصر الخورنق ينسب بناؤه إلى النعمان اللخمي، فإن تاريخه يعتبر بغير شك يرجع إلى تاريخ أبعد قدماً.

(٢) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٨٦، الكرديزي، المصدر السابق، ص ٤٤.

(٣) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

## الجزيرة الفراتية على عهد الأسرة

الليونية ٤٥٧ - ٥١٨ م

قامت الأسرة الليونية بعد انتهاء أسرة ثيودوسيوس وتولى التربيون العسكري لداكيا المدعو ليو، والذي وافق السناتو على توليه لعدم وجود إمبراطور من سلالة ثيودوسيوس وذلك عام ٤٥٧ م حيث استمر يحكم حتى عام ٤٧٤ م.

وقد توالى على حكم هذه الأسرة خمس أباطرة كان آخرهم الإمبراطور أنستاسيوس الذي حكم من عام ٤٩١ - ٥١٨ م وقد عاصر مؤسس هذه الأسرة وفاة يزدجرد الثاني كسرى فارس سنة ٤٥٧ م، حيث تولى بعد ابنه هرمز الثالث والذي دخل في صراع مع أخيه فيروز انتهى بقتله وتولية فيروز عرش الأكاسرة<sup>(١)</sup>.

وتؤكد المصادر أن عهد فيروز لم يصادف نجاحاً في الدفاع عن الممتلكات الفارسية من القوى البيزنطية أو غيرها حتى إنه قتل في إحدى المعارك العسكرية سنة ٤٨٤ م، وتولى بعده أخاه بلاش والذي عرف بمسالته للنصارى ولأهل البلاد الفراتية وغيرها الواقعة تحت حكم الفرس<sup>(٢)</sup>، ومع ذلك فقد عزل وحل محله أخاه قباد سنة ٤٨٨ م وقد ساعده في الوصول إلى العرش قبيلة الهون.

وقد اعتاد الفرس شن الحرب على هذه القبيلة لذلك كان البيزنطيون يقدمون أحياناً عوناً مالياً للأكاسرة منذ عهد الإمبراطور زينون ٤٧٤/٤٩١ م لمساعدتهم ضد هؤلاء والذين يعتبروا عدواً مشتركاً للفرس والروم. وقد استمرت هذه المساعدات حتى وفاة فيروز كسرى فارس ٤٨٤ م حيث رفض الإمبراطور زينون تقديم هذه المساعدة لخليفته بلاش الذي أعلن تأييده للحركة الانفصالية في انطاكيا فأرسل له زينون يذكره بأحقية الرومان في مدينة نصيبين قائلاً: "إن الضرائب التي تحصلون عليها من مدينة نصيبين تكفيكم، والتي كانت منذ سنوات عديدة يحصل عليها البيزنطيون"<sup>(٣)</sup>.

(١) المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٣) Bury, J.B. History of the later Roman empire, Vol. London, 1923, p.10.

كريستنسن، المرجع السابق، ص ٣٣٣.

ونتيجة لرفض البيزنطيين مساعدة الفرس لجأ كسرى قباذ إلى مهاجمة ميفارقين الفراتية، واستسلمت بدون قتال وتسلم من سكانها ضرائب عامين<sup>(١)</sup>.

اشتهر عن عصر قباذ إلى جانب ذلك أعمال وحشية قام بها ضد المدن الفراتية، فتذكر المذبحة التي وقعت على سكان آمد "ديار بكر" بعد استيلاء قباذ عليها<sup>(٢)</sup>. ويؤكد على ذلك المؤرخ المعاصر بروكيوس بقوله "إن الفرس حين دخلوا المدينة قاموا بمذبحة كبيرة فتقدم قسيس من قباذ وقال له: إنه ليس جديراً بملك مثلك أن تقتل الأسرى، فأجابه قباذ وكان لا يزال غاضباً: "لماذا أصررتم أنتم على قتالي فأجابه القسيس: قد أراد الله أن يضع آمد بين يديك لا بتدبير منا ولكن بفضل شجاعتك، فأمر الملك بوقف المذبحة، ولكن أباح نهب الأملاك واسترقاق جميع الأحياء من سكان المدينة وأن يختار له كل ذوى الكفايات فلما عاد إلى فارس مع الجيش وأسرى الحرب أثبت رأفته مرة أخرى وذلك بالسماح لجميع الأسرى بعد زمن قليل بالعودة إلى أوطانهم وقد ترك الملك القائد كلون مع فرقة صغيرة لاحتلال آمد، ولكن لا هذا القائد ولا قباذ أباحا لنفسيهما إتلافاً أو تخريباً لأية كنيسة في آمد "ديار بكر" أو خارجها<sup>(٣)</sup>.

حدثت مشاكل أخرى بين فارس وبيزنطة حول أرمينيا البيزنطية سنة ٥٠٢م عندما هاجم قباذ هذه المنطقة واستولى على ثيودوبوليس ودخل كونت أرمينية في خدمة الفرس، ولم تكن لبيزنطة حامية قوية إلا في منطقة قسطنطينياً، وأرسل الإمبراطور سفارة لقباز تعرض السلم والجلء عن أراضيها مقابل فدية مالية، ولكن قباذ رفض وقبض على الرسل، وتقدم الفرس إلى ملطية ثم آمد "ديار بكر" سنة ٥٠٣، وأرسل الإمبراطور عدداً من الفرق الإمبراطورية لم تحقق نجاحاً في البداية، لكن قباذ فشل في الاستيلاء على قسطنطينيا والرها فقرر الإمبراطور إرسال رئيس بلاطه سيلرز Celers الذي كان يتمتع بالمقدرة والشخصية القوية المحببة، حيث استطاع إعادة الوحدة للجيش وتحقيق انتصارات عديدة، وأعاد أرمينيا لبيزنطة، وأرسل قباذ قائده سباهبات Spahpat لعرض السلام على سيلرز، فرفض القائد البيزنطي في البداية، لكنه عاد وقبل بعد فشله في

(١) Bury, *Ibid*, p.11.

(٢) كريستنن، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

(٣) كريستنن، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

الاستيلاء على آمد، وانتهت المفاوضات بالتخلص من بعض القادة العرب في كلا الطرفين، ومنح أنتاستاسيوس إعفاءات للمدن التي قاست من الحصار<sup>(١)</sup>، لكن عكر صفو السلم قيام أنتاستاسيوس ببناء قلعة دفاعية في دارا وذلك عندما وضع ضعف الرومان ولتكون نقطة انطلاق للجيش الرومانية والحماية المناطق العربية التابعة للإمبراطورية من هجمات الفرس والعرب الموالين لهم، كذلك جعلوا في داخل هذه القلعة في دارا كل المتطلبات التي تسمح لهم بالقيام بمهامهم ورغم أن هذا الإجراء يخالف المعاهدات المعقودة بين الطرفين بشأن عدم إقامة قواعد عسكرية على الحدود فإن أنتاستاسيوليس استغل فرصة انشغال قباز في الحرب ضد الهون وسارع في إنجاز هذا العمل الضخم الذي استغرق أكثر من عامين، وسارع لتقوية قلعة ثيودرسيوبوليس "أرضورم" في أرمينيا الرومانية وحوّلها إلى قلعة حصينة وسماها أنتاستاسيوس<sup>(٢)</sup>. ومع ذلك انتهى الأمر بعقد صلح بين الطرفين لمدة سبع سنوات، وافقت فيه بيزنطة على دفع تعويض بخصوص نقض العهد بالنسبة لتحصينات دارا<sup>(٣)</sup>.

### الصراع البيزنطي الفارسي وأثره

#### على بلدان الجزيرة الفراتية

#### على عهد أسرة جستينيان ٥١٨ - ٦١٠ م

يعتبر الإمبراطور جستين ٥١٨ - ٥٢٧ م هو مؤسس أسرة جستينيان، وهو الذي استطاع أن يرتقى العرش بعد وفاة الإمبراطور أنتاستاسيوس في التاسع من يوليو ٥١٨ م. بدأ جستين عهده وفقاً للصلح المعقود بينه وبين الفرس والذي حقق سلاماً على المدن الفراتية التابعة لكلاهما. وقد عاصر جستين قيام قباز بمحاولة تمكين ابنه كسرى الصغير على ابنه الأكبر كاووس، ولكي يضمن ذلك عقد مع الإمبراطور جستين صلحاً نهائياً ثم طلب منه أن يتبنى ابنه كسرى وهو عمل يؤدي إلى التزام الإمبراطور التزاماً أدبياً بالدفاع

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

Cam - Med - His, Vol, I, p. 481.

(٢) محمد فتحى الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٩، ص

(٣) Cam - Med - hist, Vol, P. 482.

عن قضية كسرى ضد من يطالبون بالعرش، فقبل جستين طلب قباذ لكنه اشترط أن يتم التبنى بالسلاح على الطريقة البربرية لا بوثيقة مسطورة، ولما لم يقبل قباذ هذا الشرط انقطعت المفاوضات التي أثار الفرس فيها طلبات لهم في إقليم لازيكا في القوقاز وظلت التسوية معلقة بين الدولتين<sup>(١)</sup>.

بدأ الصراع بين فارس وبيزنطة بسبب الاضطهاد الذي بدأ يقوم به قباذ ضد نصارى جورجيا.

اعتلى جستينيان ابن أخت جستين العرش سنة ٥٢٧م بعد وفاة خاله ووفقاً لتنصيبه له إمبراطور مشاركاً في حياته، وقد كانت البلاد في هذه الآونة معرضة لأخطار الشعوب المجاورة في الشرق، ومنافسة الفرس للرومان في مناطق النفوذ في بلدان الجزيرة الفراتية وغيرها، فضلاً عن التحكم الفارسي في التجارة الدولية، خاصة وأن بلدانا كثيرة من بلدان الجزيرة كانت مراكز تجارية وطريقاً يستخدمه الفرس لإنعاش اقتصادهم، وكذلك الرومان، ومع ذلك انتهج جستينيان أسلوباً دبلوماسياً منه بذل الأموال الذي اعتبره الحل الأمثل لمثل هذه المشاكل<sup>(٢)</sup>. وإذا لم يجد هذا الأسلوب مع أعدائه لجأ إلى أسلوب الوعيعة والدس والشقاق، وذلك بإثارة شعب ضد الآخر وإشعال نيران الغيرة والحسد والصراعات فيما بينها، كما اتخذ أسلوب التنصير بين سكان الجزيرة الفراتية وما يتبعها من مدن أرمينيا مما كان سبباً في خروج الفرس لوقف التيار المسيحي بين سكان هذه البلدان والذي كان سبباً كبيراً في تأجيج الصراع بين القوتين حول فرض نفوذهما على هذه البلاد.

لم يكن الصراع الفارسي الروماني في هذه الفترة حول مناطق الجزيرة الفراتية وحدها، ولكن تعداه إلى مناطق أخرى كثيرة تسببت في اندلاع الحرب بين الطرفين خاصة حول مناطق القوقاز والتي كان لها أكبر الأثر في قيام الفرس باتخاذ الإجراءات المضادة انتقاماً من الرومان، ولعل عرضنا لهذه الحرب ليس إلا لتوضيح حقيقة وهي أن الجيشين الروماني والفارسي اتخذوا من الأراضي الفراتية الخاضعة لهما مراكز عسكرية تجهز بها

(١) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٦٩.

(٢) Diel, C., *Byzantium, greatness and decline*, T. from French by Naomi Walford, New Jersey, 1957, p.55

الحملة الموجهة ضد المدن القوقازية، بل واستعانوا بأهلها في هذه الحملات، كما لا بد أن تؤكد أن اقتصاد البلاد الفراتية كان يتأثر كثيراً من هذه الحملات العسكرية التي دفعوا تكاليفها من خزائنها. ولقد انتقلت الجيوش الرومانية للعمل على الحدود الشرقية المجاورة للفرس، وعملت على تقوية الحصون والتحصينات هناك، ودخلت قوات بليزاريوس في معارك هجومية، غير أنها منيت بالفشل الأمر الذي جعلها تتخذ موقفاً دفاعياً في مدينة دارا الفراتية حتى سنة ٥٢٩م<sup>(١)</sup>.

رأى الإمبراطور جستينيان التفاوض مع كسرى فارس قباز، لكن هذه المفاوضات تعثرت من قبل الجانب الفارسي، مما دفع بليزاريوس إلى التحصن في دارا الفراتية والتي حولها إلى قلعة عسكرية قوية، لذلك كان على الفرس تأمين حدودهم بالدخول في معركة هجومية ضد بليزاريوس، غير أن نتيجة هذه المعركة كانت في صالح الرومان، ولم يتمكن الفرس من هزيمتهم واقتحام دارا بفضل مهارة بليزاريوس العسكرية والتي تجلت في هذه المعركة سنة ٥٣٠م<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من الانتصار العسكري الذي حققه جستينيان على الفرس فإنه كان تواقاً إلى إنهاء حالة الحرب معهم للإسراع في إرسال قواته لمحاربة قبيلة الوندال الجرمانية في شمال إفريقيا، غير أن الفرس كانوا في غاية الغضب، لذلك احتد قباز في محادثاته مع السفير الروماني الذي أرسله جستينيان، ووضع عدة شروط منها أن تكون مدينة دارا الفراتية منطقة منزوعة السلاح، ويبدو أن قباز قد بيت النية على محاربة الرومان لأنه طرد السفير الروماني دون التوصل إلى اتفاق<sup>(٣)</sup>.

على أية حال استطاع الفرس مسح عار الهزيمة، وخاضوا معركة ضد بليزاريوس قرب مدينة الرقة الفراتية في التاسع عشر من إبريل سنة ٥٣١م، حيث هزموا بليزاريوس على الرغم من فداحة الخسائر بين الطرفين<sup>(٤)</sup>.

( ١ ) Procopius, of Caesarea, *history of wars*, T by H.B. Dewing, New York, 1914-1940, Vol. 55p. 103-107.

( ٢ ) Ibid, pp. 105 - 127.

( ٣ ) Procopius, *Ibid*, pp. 141 - 145.

( ٤ ) Ibid, p. 169.

ولابد أن نوضح هنا أثر هذه المعارك على هذه المدينة الفراتية وهي مدينة الرقة التي شهدت دماراً خطيراً وحطمت معظم استحكاماتها والقرى التي حولها، وأصبحت أرضها مستقرّاً لعدد كبير من الجنود الرومان الذين صرعوا في المعركة.

كما نوضح نقطة أخرى مهمة وهي مشاركة قبيلة الغساسنة والذين تعاونوا مع الأباطرة الرومان بدءاً من عهد الإمبراطور أنستاسيوس، والذي خاض حروباً مع الفرس سبق الإشارة إليها من عام ٥٠٢ حتى عام ٥٠٥ م.

ولقد شارك في موقعة الرقة هذه قوات الحارث بن جبلة الذي عاصره الإمبراطور جستنيان<sup>(١)</sup> فقد كان يثق في هذا القائد العربي ثقة كبيرة، حيث طلب منه مشاركته في هذه المعركة، لذلك وقف إلى جانبه وسانده<sup>(٢)</sup>.

على أن استئناف مفاوضات السلم بين الفرس والرومان حدث في وقت كان فيه الفرس يحاصرون مدينة ميفارقين الفراتية، وذلك بعد وفاة كسرى قباذ مباشرة وتولية ابنه كسرى أنوشروان "خسرو الروح الخالد" بناء على وصية أبيه رغم أنه ابنه الثالث وليس الأكبر، وذلك في الثامن من سبتمبر سنة ٥٣١ م<sup>(٣)</sup>.

استغرقت مفاوضات السلام عاماً إلى أن توصل الطرفان إلى وضع شروط المعاهدة الدائمة في سبتمبر سنة ٥٣٢ م، والتي أُملي فيها الطرف الفارسي شروطه، والتي نصت على أن تكون مدينة دارا الفراتية والتابعة للرومان منزوعة السلاح إلى جانب شروط أخرى خارجة عن نطاق منطقة الجزيرة الفراتية.

والواقع أن هذه المعاهدة مستترة سيادة الرومانية إذ إن اشتراط الفرس بأن تكون دارا منزوعة السلاح هو بمثابة انتقاص من سيادة الرومان على أراضيهم لاسيما وأن هذه المعاهدة لم يرد بها شيء عن وجود منطقة منزوعة السلاح على الجانب الفارسي، كما نصت

(١) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٥٦٩، جواد علي، المنفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٧ - ١٩٧١، ج٣، ص ٣٩٥.

(٢) Procopius, op.cit, p.171.

(٣) محمد فتحي الشاعر، المرجع السابق، ص ١٩٤.

المعاهدة على منح حرية العبادة لمسيحي فارس وجميع البلدان الواقعة تحت سيادتها ومنها مدن الجزيرة الفراتية<sup>(١)</sup>.

على أن معاهدة السلام الدائمة لم يكتب لها البقاء سوى سبع سنوات حقق خلالها جستنيان العديد من الإنجازات الضخمة شرقاً وغرباً، الأمر الذي جعل كسرى أنو شروان يرى ضرورة المبادرة بتوجيه ضربة موجعة لجستنيان، بعد أن أشارت كل الدلائل أن الإمبراطورية الفارسية ذاتها أصبحت معرضة للخطر إذا ما ظل الفرس يرقبون ما يجري على الساحة دون حراك.

ولقد حدثت ظروف غيرت من شكل السلام القائم بين القوتين وذلك بخصوص المعاهدة التي جعلت من دارا الفراتية منطقة منزوعة السلاح كما رأينا - وأن ينتقل منها دوق إقليم ما بين النهرين إلى القسطنطينية، فإن هذه المعاهدة لم يرد بها شيء عن إقامة التحصينات الدفاعية سواء في تلك المدينة أو في غيرها من الأماكن التي درج الفرس على مهاجمتها خاصة مدن الجزيرة التي تتبع مدنها إحدى القوتين، لذلك أصبح من حق جستنيان إقامة ما شاء من التحصينات في دارا نفسها المنزوعة السلاح أو في غيرها<sup>(٢)</sup>.

ولعل ذلك كان سبباً في اعتقاد كسرى بأن جستنيان يخطط لأعمال عدوانية ضد الفرس وإلا فما هو الدافع الذي جعل الفرس يضعون شرطاً في معاهدة السلام سنة ٥٦٢ م ينص على الامتناع عن إقامة أو تقوية أسوار المدينة حتى لا تكون ذريعة لتجديد أي منازعات قد تطيح بمعاهدة السلام، والواقع أن تلك الأسباب كانت كافية لاتهام جستنيان بأنه خرق معاهدة السلام الدائم، لذا عقد كسرى العزم على فرض إرادته على جستنيان وضرب قواته في المدينة القريبة من الحدود الفارسية عن طريق فرض إرادته، وذلك بتحصيل فدية كبيرة من كل مدينة تحاصرها القوات الفارسية، على أن يتم تدمير المدينة التي تبدي أية مقاومة، ولم يكن هدفه هو مجرد السيطرة على مدينة محددة لاستخدامها كورقة رابحة وأداة للضغط وفرض الإرادة الفارسية كما فعل والده قباذ مع الإمبراطور

(١) المرجع السابق، ص ١٩٥.

محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ١٩١،

Procopius, op.cit, Vol. III, p. 83 – 89.

(٢) الشاعر، المرجع السابق، ص ١٩٧.

أنستاسيوس في مدينة آمد الفراتية ٥٠٢ - ٥٠٥م، فبالرغم من محاولات جستنيان المحافظة على معاهدة السلام الدائم إلا أن كسرى كان قد أعد القوة لتنفيذ خطته، ولم يتلطف مع السفير الروماني بل احتجزه عاماً كاملاً إلى أن يتم لكسرى الاستيلاء على كل الأموال الموجودة في مدينة سورا Sura الفراتية والمجاورة لمدينة الرقة، بعد أن خدع أسقفها الذي كان قد تعهد بدفع الفدية التي حددها كسرى<sup>(١)</sup>.

لم يكتف كسرى بذلك بل قتل العديد من أهالي مدينة سورا وأسر حوالي اثنا عشر ألفاً من سكانها، ثم أشعل النيران بها في ربيع سنة ٥٤٠م. وبعد أن حقق خطته طرد السفير الروماني وأمره بإبلاغ جستنيان بما شاهده، ولاشك أن كسرى كان يعنى بذلك أن الحرب قد بدأت بالفعل بين القوتين العظميين.

استدعى كسرى الأسقف كانديوس أسقف الرصافة التابعة للجزيرة والتي تبعد تسعة عشر ميلاً عن مدينة سورا وأمر بفدية الاثنى عشر ألف أسير من أهالي سورا خلال عام من تاريخه مع التهديد والوعيد في حالة عدم الدفع<sup>(٢)</sup>.

كان القائد البيزنطي بليزارىوس مشغولاً بالحرب في جبهة أخرى ضد القوط الشرقيين في انطاكيا، لذلك وقع عبء القتال على القائد بوز Buzes الذي أقام في مدينة منبج الفراتية دون أن يحرك ساكناً عند احتلال كسرى لمدينة سورا Sura، وإذا كان هذا القائد قد أحجم عن ملاقاته كسرى لضعف قواته فإن هذا لا يعفيه من مسئولية التقاعس عن رد العدوان واتهامه بأنه أثر السلامة عن التصدي للأعداء لحماية البلاد في وقت الشدة<sup>(٣)</sup>.

لم يقم بوز القائد الروماني للشرق بالتصدي لكسرى عندما حاصر مدينة منبج الفراتية وإنما سبقه في الانسحاب منها تاركاً بها حامية صغيرة، كما أن هذا القائد الروماني لم ينفذ

(١) Procopius, *op.cit.*, Vol. II, p. 249.

الشاعر، المرجع السابق، ص ١٩٩٩،

بيومي مهران المرجع السابق، ص ٥٨٨،

آرثر كريستنسن، المرجع السابق، ص ٣٥٨.

(٢) الشاعر، المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٣) الشاعر، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

خطته التي سبق وأن أعلن عنها إبان وجوده في منبج من أنه سيقوم بتطويق العدو إذا ما حاول مهاجمة منبج وكذلك لن يسمح للقوات الفارسية بالحصول على الإمدادات، على أن كسرى اكتفى بفرض فدية على المدينة، ولم تتعرض للأذى<sup>(١)</sup>.

أقام بوز بعد ذلك في مدينة الرها في الوقت الذي قرر فيه كسرى فرض فدية على أهلها ليسلموه أسرى مدينة انطاكيا، وقد تم ذلك عندما كان كسرى يجول في الأقاليم الشرقية وقبل أن يعود إلى بلاده قام بهجوم على مدينة دارا التي تقيم فيها الحاميات البيزنطية<sup>(٢)</sup>.

يتضح لنا أحوال المدن الفراتية وما كانت تلاقيه في فترة هذا الصراع الطافح بين الفرس والروم وكيف تحملت جيوش القوتين ودفعت أموال الفدية والجزية للقوى الغالبة، ولم يكن الأمر هذا هو مصير المدن وإنما تحملت القرى الصغيرة مثل سورا وغيرها مغبة هذا القتال.

قام جستنيان باستدعاء قائده من الجبهة الانطاكية للمشاركة في صد العدوان الفارسي والوقوف في وجهه بعد فشل القيادة السابقة، لذلك انتهاز فرصة انشغال كسرى أنوشروان بالحرب في جبهة أخرى بالقوقاز للاستيلاء على لازيقا حتى يلتمس للفرس موضعاً على البحر الأسود يتيح لهم مهاجمة القسطنطينية ذاتها<sup>(٣)</sup>.

لذلك تحالف مع القائد العربي الحارث بن جبلة الغساني الذي شن غارة ناجحة على الأراضي الفارسية سنة ٥٤١م لتطهير المناطق الغربية من مدينة نصيبين الفراتية بعد أن عجز بليزاريوس عن احتلالها، بالرغم من محاصرته لها. وقد نجح الحارث في هذه المهمة وعاد سالمًا محافظاً على سلامة القوات التي كانت تحت إمرته<sup>(٤)</sup>.

(١) الشاعر، المرجع السابق.

(٢) Procopius, *op.cit*, Vol. II, pp. 313 – 373.

يذكر الكرديزي: أن كسرى أنوشروان استولى على دارا والرها ومنبج وفسرين وحلب وفامية وحصص وسلوكية وحاصر انطاكيا وتراقيا، انظر، زين الأخبار، ص ٤٨.

(٣) Procopius, *op.cit*, Vol. I, P. 171.

عن ذلك راجع كريستنسن، المرجع السابق، ص ٣٤١.

(٤) Vasiliev, A.A. *Justinian the First*, Cambridge, 1950, pp. 258 - 259.

استعان بليزاريوس مرة أخرى بالحارث بن جبلة لحصار مدينة دارا، فقام الحارث بإمداده باثنى عشر ألف مقاتل، وبالفعل نجح الحارث في مهمته في غزو الأراضي الفارسية وإحداث الخسائر بها في الأرواح والممتلكات، وعاد بعد أن جمع الغنائم، على أن النصر الذي استطاع بليزاريوس تحقيقه بعد اجتيازه للأراضي الفارسية كان اقتحامه لقلعة فارسية وأسر من كان بها<sup>(١)</sup>.

استمر كسرى في محاولاته الدائمة لفرض نفوذه على مدن الجزيرة الفراتية، فكانت الرها المدينة التي حاول الاستيلاء عليها سنة ٥٤٠ لكنه فشل لقوة استحكاماتها لذلك عاود الهجوم عليها سنة ٥٤٤م راجباً في الاستيلاء عليها وتدميرها ونقل سكانها إلى بلاد الفرس<sup>(٢)</sup> غير أن كل محاولاته العسكرية باءت بالفشل لقوة استحكام سور المدينة، وللمقاومة الصلبة التي أبدتها الأهالي بالمدينة الذين تعاونوا مع القوات التي كانت بداخلها، لذلك اضطر كسرى إلى فك الحصار عن المدينة بعد أن فرض عليها مبلغاً من المال دفعته رهبة من الفرس سنة ٥٤٤<sup>(٣)</sup>. وبذلك اتضح أن البيزنطيين الرومان لا قبل لهم بمحاربة الفرس، لذلك طالبوا بعقد الصلح والهدنة مقابل دفع ما يحدده الفرس المنتصرون، وكان مقر هذه الجهود الدبلوماسية مدينة دارا الفراتية سنة ٥٦٢م، وتم التوقيع على هدنة لمدة خمسين عاماً، وما يهمنها فيها أن دارا ظلت مدينة منزوعة السلاح، وهو الشرط الذي كان موجوداً في معاهدة سنة ٥٣٢<sup>(٤)</sup>.

وبذلك تنفست مدن الفرات الصعداء لتوقف الحرب بين القوتين حتى يستطيع أهل هذه البلاد ممارسة حياتهم الطبيعية طبقاً للسيادة الواقعة عليهم سواء كانت بيزنطية أم فارسية، ولكن أمد هذا السلام كان مؤقتاً وذلك لوفاة الإمبراطور جستنيان سنة ٥٦٥

(١) الشاعر، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(٢) Procopius, *op.cit.*, Vol. II, p. 126 - 131.

(٣) Ibid.

(٤) Barker, *Justinian and the Later Roman empire*, London, 1966, pp. 112 - 124.

Vasiliev, *A history of the Byzantine empire*, Vol. I, pp. 138 - 139.

Ostrogorsky, *op.cit.*, p. 66.

Bury, *op.cit.*, Vol. II, pp. 120, 123.

وتولى ابنه جستين الثانى العرش ٥٦٥ - ٥٧٨ فوجدناه يقوم بنقض الصلح وإشعال الحرب بسبب رفض دفع ما هو مقرر عليه من الجزية للفرس<sup>(١)</sup>.

ولعل الذى دفع جستين إلى ذلك لم يكن حماقة أو حبا فى القتال، وإنما لأنه واجه مشاكل مالية واقتصادية شديدة نتيجة لأن والده جستين أنفق أموالاً ضخمة فى سبيل تحقيق مشاريعه السياسية لإعادة البحر المتوسط بحيرة رومانية، فاستنفذت موارد الدولة وتركت خزائنها خاوية، وأفقرت الناس وأنهكت قواهم حتى أننا نلاحظ أنه فى أخريات عهده تبدأ الكوارث بالنزول على بعض مناطق الإمبراطورية<sup>(٢)</sup>. لذلك فلم يكن فى مقدور جستين إزاء هذه الظروف السيئة دفع الأموال المقررة عليه للفرس، لذلك شاءت إرادة الله ألا تنعم الأراضى الفراتية بالهدوء لاشتعال الحرب مرة أخرى فقد زحف الفرس ناحية الأراضى البيزنطية رغبة منهم فى المحافظة على الشروط التى تضمنتها المعاهدة المشار إليها، وترتب على ذلك أن ألحقت الجيوش الفارسية بالقوات البيزنطية هزيمة شديدة فى مدينة الرها الفراتية وقام الجند بعمليات تخريب واسعة، فقد أحرقوا ودمروا المدينة والقرى المحيطة بها.

كانت هذه الهزيمة صدمة كبيرة للإمبراطور جستين الذى لم يدر بخلده إطلاقاً أن يحدث مثل هذا فى يوم من الأيام، كذلك لم يسع الجيوش البيزنطية التى كانت تحاصر مدينة نصيبين الفراتية على أمل الاستيلاء عليها إلا أن ترفع الحصار عن المدينة، ولعل أخطر من ذلك هو سقوط دارا البيزنطية والتى تعتبر من أهم المواقع الفراتية الحصينة على الحدود الفارسية البيزنطية فى أيدي الفرس بعد حصارهم لها ستة أشهر، فكان لسقوطها وقع شديد على الإمبراطور جستين حتى أصيب بالجنون، ولم تستطع زوجته الإمبراطورة صوفية الحصول على هدنة لمدة عام واحد سنة ٥٧٤ إلا بعد أن دفعت خمسا وأربعين قطعة ذهبية<sup>(٣)</sup>.

(١) Vasiliev, op.cit., p. 170.

(٢) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص ٨٣.

(٣) Bury, op.cit., Vol. II, PP. 95 - 101, Jones, A.H.M. the later Roman empire, Vol. I, Oxford, 1973, p. 305.

خلف جستين الإمبراطور تيربوس الثاني ٥٧٨ - ٥٨٢ م والذي عاصر وفاة كسرى أنوشروان سنة ٥٧٩ م وتولية ابنه هرمز الرابع الذي حكم حتى عام سنة ٥٨٩ م. وكل ما قام به تيربوس أنه أقنع الفرس بتجديد معاهدة السلام بنفس الشروط القديمة، لكن هرمز فضل أن تفصل أرمينيا وأصر على هدنة لمدة خمس سنوات في العراق، ووافق الإمبراطور على دفع ثلاثين ألف قطعة ذهبية إلى كسرى لمدة ثلاث سنوات ورغم ذلك ظلت العمليات الحربية دائرة في أرمينيا وبلدان الجزيرة الفراتية<sup>(١)</sup>.

لم يمتد العمر بالإمبراطور تيربوس لتحقيق مشاريعه، وكانت الأمور كلها موكلة إلى خلفه الإمبراطور موريس ٥٨٢ - ٦٠٢ م لتحقيق المشاريع.

ولعل ما يهمننا من أعماله هو مصير الأراضي الفراتية في سلسلة الصراع البيزنطي الفارسي وكيف سيواجه المهانة التي لحقت بالبيزنطيين من ضياع أملاكهم في الفرات، ولكن شاءت الظروف أن تنتهي المشكلة نهاية مرضية بوفاة كسرى هرمز واختلاف أبناء البيت الساساني على الحكم، ومساعدة موريس لأحد المطالبين بالعرش وهو كسرى برويز المظفر "الثاني" حفيد كسرى أنوشروان، فبادر إلى إبرام معاهدة مع الدولة البيزنطية سنة ٥٩١ م لها أهمية كبيرة بالنسبة للسيادة على الأراضي الفراتية إذ تنازلت فارس بمقتضاها للبيزنطيين عن أرمينيا الفارسية والجزء الشرقي من الجزيرة الفراتية بما في ذلك مدينة دارا وميفارقين، ولم تنطو المعاهدة على شرط الجزية السنوية الذي كان مهيناً للدولة البيزنطية<sup>(٢)</sup>.

توطدت العلاقة بين الإمبراطور موريس وكسرى أبرويز وتصاهرا حيث تزوج موريس من ابنته ماريا وأمدته بأموال كثيرة، وذلك لأن موريس ساعد كسرى مرة أخرى في استرداد عرشه من الخارجين عليه، حيث سمح له بالإقامة في مدينة منبج الفراتية حتى تم القضاء على الخصوم وعودته للحكم<sup>(٣)</sup>.

(١) Jones, *Ibid*, p. 308.

(٢) Ostrogorsky, *op.cit*, pp. 79 - 80.

(٣) Jones, *op.cit*, Vol. I, p. 311.

كريستنسن، المرجع السابق، ص ٤٢٨ م.

الكرديزي، زين الأخبار، ج١، ص ٥٣.

ولقد كان للحروب الطويلة التي خاضتها منطقة الجزيرة الفراتية في سلسلة الصراع الفارسي البيزنطي أن قلت مواردها كما اجتاحتها بعض الكوارث الطبيعية، مما دفع الإمبراطور موريس إلى تخفيض رواتب الجند إلى الربع مما تسبب في عصيان الجند والقيام بمظاهرات عداوية ضد بيزنطية وإمبراطورها أسفرت عن طرد القائد البيزنطي إلى القسطنطينية، ويذكر أن ذلك كان من الأسباب التي أدت إلى ثورة الجند على الإمبراطور موريس وعزله عن منصبه<sup>(١)</sup>.

تعرض الإمبراطور موريس لانقلاب عسكري أطاح به حيث تم إجباره على التنازل عن العرش، ومغادرة القصر الإمبراطوري، وتم تنويع القائد العسكري فوقاس في ٢٣ نوفمبر سنة ٦٠٢م بموافقة السناتو وشعب العاصمة<sup>(٢)</sup>. وما إن اعتلى فوقاس عرش الإمبراطورية حتى سعى للتخلص من الإمبراطور السابق موريس ومن أبنائه وتم قتله هو وخمسة منهم في ٢٧ نوفمبر سنة ٦٠٢، وقد نجح أحد أبنائه الناجين وهو ثيودسيوس في الفرار إلى كسرى فارس مستجيراً به وطالباً مساعدته، فأجاره ووعده بالمساعدة على استرداد عرشه ليرد له جميل أبيه السابق<sup>(٣)</sup>.

استشار كسرى رجاله، فاختر لقيادة جيشه رجلاً شجاعاً يدعى روميزان، وحثه على مهاجمة البيزنطيين، وأطلق عليه شهر باراز.

وفي هذه المرحلة كانت مدن الجزيرة الفراتية هي مسرح العمليات العسكرية خاصة مدينة الرها والتي ناصب أهلها الإمبراطور فوقاس العدا، وتمرد بداخلها القائد الكسرى نارسيس الذي كان عليه قيادة منطقة بين النهرين حيث دخل بجيشه إلى الرها واستولى عليها وقتل مطران المالكيين رجماً بالحجارة، فأرسل إليه فوقاس جيشاً بقيادة جيرمان نجح في حصار المدينة، وأخرج نارسيس منها وأسره وأرسله إلى القسطنطينية<sup>(٤)</sup>.

( ١ ) Ostrogorsky, *op.cit.*, p. 100.

( ٢ ) *Ibid.*.

Jones, *op.cit.*, p. 311 – 312.

( ٣ ) ليلي عبد الجواد، الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور هرقل، القاهرة، دار النهضة العربية، سنة ١٩٨٥، ص ٤٤.

( ٤ ) Gibbon, E. *The Decline and Fall of the later Roman Empire*, London, 1911, Vol. I, pp. 512 - 513.

تحرك الجيش الفارسي في هذه الفترة في اتجاه مدينة دارا الفراتية انتظاراً لوصول كسرى الذي وصل بعد أيام وقرر تقسيم جيشه إلى قسمين أبقى القسم الأول لحصار دارا وتوجه مع القسم الثاني إلى الرها لمهاجمة القائد البيزنطي جيرمان وجيشه، حيث تمكنوا من قتل عدد كبير من رجاله في حين فر الباقيون، وفتحت مدينة الرها أبوابها لكسرى ودخلت في طاعة الفرس، وتلتها مدينة دارا التي طال حصارها لأكثر من عام ونصف حيث سقطت وعادت مرة أخرى إلى طاعة الفرس<sup>(١)</sup>.

وعلى ما نرأف بأحوال بلدان الجزيرة التي أضنتها الحروب وأفقدتها الحياة المستقرة، وتنوع السيادة عليها. وهاهي مدينة الرها قلعة المسيحية ومركز الكنيسة الشرقية تقع تحت السيادة الفارسية.

لم تكن دارا والرها هما المدينتان الوحيدتان اللتان سقطتا في يد الفرس وخرجتا من السيادة البيزنطية، وإنما لحقت بهما معظم مدن الجزيرة فقد وقعت معظم أرمينيا البيزنطية في أيديهم، ثم دخل القائد الفارسي شهرباراز ما بين النهرين وحاصر آمد "ديار بكر" وكذلك حران، وبذلك أصبحت كل مدن الجزيرة الفراتية تحت السيادة الفارسية<sup>(٢)</sup>.

حاول الإمبراطور فوقاس لم الشعث وجمع الشتات، لكنه لم يجن غير الهزائم المتلاحقة. ولا ننسى هنا أن نوضح أثر هذه العمليات العسكرية على مدن الجزيرة فقد ساد القلق والرعب بين سكانها بسبب سوء معاملة الجنود الفرس لهم، إضافة إلى عمليات السلب والنهب التي مارسوها في المدن الواقعة في أيديهم أثناء العمليات العسكرية<sup>(٣)</sup>، ويصف المسعودي الظلم الذي أوقعه كسرى بالرعايا الخاضعين له بقوله: "واستوحش من شريعة العدل وواضحة الحق فعدل إلى الجور والعسف بخواص رعيته وعوامها وحملها على ما لم تكن تعهد وأوردتهم إلى ما لم يكونوا يعرفونه من الظلم"<sup>(٤)</sup>.

(١) Ostrogorsky, op.cit, p. 93.

(٢) Ibid.

(٣) بيغوليفسكيا، ثقافة السريان، ص ٣٠٤ - ٣٠٥، سعاد العمري، المرجع السابق، ص ٢٥٤.

(٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين، ط٤، مصر، مطبعة السعادة سنة ١٩٦٤، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

## الجزيرة الفراتية على عهد الإمبراطور

هرقل ٦١٠ - ٦٤١ م

كان للهزائم العسكرية التي منيت بها الجيوش البيزنطية على أيدي الفرس أثرها على أفول نجم الإمبراطور فوقاس، فقد استمر الفرس في انتصاراتهم العسكرية التي أوضحناها في بلدان الجزيرة الفراتية، والتي كانت مفتاحاً لغيرها من المناطق حيث نفذت الجيوش الفارسية إلى آسيا الصغرى واستولت على قيصرية وتوغلوا عبر كبادوكيا حتى وصلوا إلى أبواب خلقدونية، هذا بينما اكتسح السلاف ولايات تراقيا والليريا لأن الجيش الأوربي كان قد نقل ذلك الوقت عبر البسفور للوقوف ضد الفرس<sup>(١)</sup>.

توغل الجيش الفارسي حتى انطاكيا ثم دمشق وقيليقية فاستولى على حصن طرسوس، وطرده البيزنطيين من أرمينيا، وتوجه صوب الشام وبيت المقدس وشرع في غزو مصر، فسقطت الإسكندرية في أيديهم سنة ٦١٩ م ولم تلبث مصر بأسرها أن أصبحت تحت السيادة الفارسية<sup>(٢)</sup>.

وهكذا عم الخراب والدمار في الأراضي البيزنطية في الوقت الذي انتهى فيه حكم أسرة جستنيان، وبدأت أسرة جديدة عندما أبحر هرقل ابن حاكم ولاية إفريقية إلى القسطنطينية كمنقذ للبلاد من الكوارث التي نزلت بها وذلك عام ٦١٠ م<sup>(٣)</sup>.

لقد كان للاحتلال الفارسي لمناطق الجزيرة الفراتية، والتي كانت في أيدي البيزنطيين أكبر الأثر على السياسة التعسفية التي اتبعها الفرس في معاملة أهالي هذه البلاد في وقت اشتدت فيه نار العداوة والبغضاء بين القوتين، وكانت المواجهة حياة أو موتاً، فقد مارسوا شتى أنواع الضغط والعنف على أهالي تلك المدن وعملوا على فرض ضرائب باهظة عليهم، وأجبروهم على دفعها بالقوة، وساموا الناس سوء العذاب واغتصبوا أموالهم<sup>(٤)</sup>.

(١) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص ٩٨.

(٢) Ostrogorsky, op.cit, p. 86.

Vasiliev, op.cit., p. 196.

(٣) Baynes, Moss, Byzantium, Oxford, 1953, p. 85.

(٤) Ostrogorsky, op.cit, p. 98.

ويبدو أن أهالي بعض مدن الجزيرة الفراتية عارضوا سياسة التسلط الفارسي بسبب القوة التي اتبعوها معهم مما دفع كسرى إلى تخليّة جماعية لأهلها، ونفيهم إلى فارس، ودخلها مع جيشه وجعلها قاعدة له استعداداً لمواجهة ردة فعل بيزنطة<sup>(١)</sup>.

ومن وسائل العنف التي اتبعها كسرى ضد البيزنطيين حركة الاضطهاد التي قام بها ضد المسيحيين فيذكر جويدى: "إن كسرى قد أقسم حين انتصر في الحرب ليأتين على جميع الكنائس في الدولة ولا يترك ناقوساً منها". ومهما يكن فقد اضطهد النصارى جميعاً نساطرة ويعاقبة<sup>(٢)</sup>.

كانت ردة الفعل البيزنطية قوية على يد الإمبراطور هرقل الذي توقف عن صد أعدائه وبدأ في الإصلاحات الداخلية حتى يتمكن من تجهيز جيش يستطيع مواجهة هذه الأزمة الطاحنة، وفعلاً حقق ذلك بالتعاون مع بطريك الكنيسة سرجيوس وبدأ يستعد للخروج لمواجهة أعدائه، ولا يعنينا من سلسلة حروبه إلا ما خاضه ضد أرض الجزيرة الفراتية جميعها فكانت خطته تهدف إلى استعادة الأراضي التي اغتصبها الفرس، وإجبارهم على قبول سلام عادل ومنصف<sup>(٣)</sup>، ولكن نظراً لأنه من العسير الاتجاه نحو الشام وفلسطين ومصر لاستعادتها، لكن كان على هرقل أن يضرب الفرس أولاً في عقر دارهم وفي قلب فارس ذاتها أي أن الاتجاه الحربى سيكون ناحية الجزيرة الفراتية.

حقق هرقل انتصاراً عسكرياً في بداية حملاته ضد الفرس في المناطق التي احتلوها في آسيا الصغرى ٦٢٢ - ٦٢٣ م<sup>(٤)</sup>. وبعدها أرسل هرقل رسالة تحذير إلى كسرى إما أن يقبل الصلح والسلام وإلا فإنه سوف يهاجم بلاد فارس عما قريب، لكن كسرى لم يقبل عرض الصلح، ولم يعر تحذير هرقل أى اهتمام أو اعتبار لأنه لم يتصور أن البيزنطيين يمكنهم غزو فارس واعتقد أن هرقل لن يتوجه نحوها<sup>(٥)</sup>.

(١) Ibid.

(٢) كريستيس، المرجع السابق، ص ٤٧٣.

(٣) ليل عبد الجواد، المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٤) Ostrogorsky, op.cit., 144.

(٥) ليل عبد الجواد، المرجع السابق، ص ٢٤١.

نجح هرقل في غزو أرمينيا الفارسية وأذربيجان وجزءاً من فارس، وبعد ذلك أصبحت مناطق الجزيرة محطاً للجيش البيزنطي والتي عبرت جبال طوروس ووصلت إلى نهر دجلة بمشقة بالغة وعبرت النهر متجهة نحو ميافارقين ثم آمد "ديار بكر". وهناك توقفت للراحة في الوقت الذي كان القائد الفارسي شهرباراز يترصد للإمبراطور هرقل، ولهذا أرسل الإمبراطور نخبة من رجال الجيش لتأمين العديد من الممرات. أما هو فتقدم نحو الشرق مع بقية الجيش تاركاً ديار بكر وتابع سيره حتى تقابل مع شهرباراز عند الفرات وكان على هذا النهر جسر من الحبال والأغصان والصوف فقطعه شهرباراز وسحبه إلى الشاطئ الآخر، فلما وصل لم يجد الجسر، ولكن وجد مخاضة فعبر منها النهر نهاية مارس سنة ٦٢٥ م واحتل سميساط الفراتية<sup>(١)</sup>.

استكمل هرقل دوره في مواجهة القوات البيزنطية حتى إنه كان ينوى مهاجمة عاصمتهم المدائن "طسيفون" لذلك اتخذ طريقه ناحية مناطق الفرات فوصل إلى آشور ليتمكن من عبور جبال الأكراد الوعرة قبل حلول الشتاء الذي سيغلق الممرات بثلوجه، فبوصوله إلى آشور، ومهما كانت حالة الجو فإنه سوف يتمكن من الوصول إلى غايته في طسيفون بلا عقبات، وفعلاً استكمل مسيرته حتى وصل إلى نينوى حيث دارت بينه وبين الفرس موقعة حامية الوطيس أسفرت عن انتصار بيزنطي ضخم وهزيمة فارسية كبيرة أعقبها سقوط قصر دستاجرد، ورغم أن هرقل كان قد ركز القوة إذ كان هو المنتصر إلا أنه عرض الصلح على كسرى وعقد اتفاقية سلام، لكن كسرى رفض لأن هرقل طالب بعودة الحدود إلى ما كانت عليه سنة ٦٠٢ م مما أدى إلى نقمة شعبه عليه<sup>(٢)</sup>.

لذلك قامت ثورة ضد كسرى انتهت بعزله، لعل من أسبابها إلى جانب التدهور السياسي والاقتصادي والعسكري كان غضب المسيحيين في مناطق الجزيرة، فبعد أن كان يحسن معاملتهم رجع عن ذلك<sup>(٣)</sup>، لذلك كان لكسرى أبناء كثيرون فتجاوز أكبرهم وهو شيرويه وهو ابنه من ماريا ابنة الإمبراطور موريس - وعزم على تنصيب مردانشاه وهو

(١) Ibid, pp. 208 - 209.

(٢) Stratos, Ibid, pp. 216 - 217.

(٣) كريستنن، المرجع السابق، ص ٤٧٥.

ابنه من شيرين، ولما علم شيرويه بنية أبيه في تتويج أخيه عزم على الدفاع عن حقوقه<sup>(١)</sup>. كما قام بمساعدة هرقل في إخراج الأسرى البيزنطيين من السجون الفارسية، ثم دبر مؤامرة للقبض على أبيه، حيث قتله وتوج شيرويه ملكاً على الفرس في ٢٥ فبراير سنة ٦٢٨، وبعدها نجح هرقل في استعادة جميع البلدان التي احتلها كسرى في مصر والشام والجزيرة الفراتية.

وخرجت جميع مدن الجزيرة الفراتية من التبعية الفارسية إلى التبعية البيزنطية حيث اعترف هرقل بشيرويه ملكاً على الفرس وأشار إليه على أنه ابنه ليشير بذلك إلى سمو مكانته، إذ أصبح هرقل الأب الروحي لملك الفرس. ولم يكن ذلك فقط، إذ أن شيرويه أعلن أثناء مرضه الذي مات فيه<sup>(٢)</sup> بأن يكون الإمبراطور البيزنطي وصياً على ابنه كسرى الثاني رغم أنه أعلن ذات مرة في الماضي أن الإمبراطور البيزنطي ليس إلا عبداً له غير أن الزمن تغير وانعكس الوضع، وأعلن شيرويه أن ابنه ووريثه من الحكم عبد للإمبراطور البيزنطي<sup>(٣)</sup>.

توفي شيرويه بعد أن حكم حوالي ستة أشهر، فولوا على العرش ابنه أردشير الثالث وكان طفلاً فنصب عليه وصياً، لكن حدثت مشاكل من قبل القائد العسكري الفارسي شهرباراز الذي رفض قبول أردشير حاكماً، لذلك اتصل بالإمبراطور البيزنطي هرقل وزين له مساعدته في الإطاحة بأردشير رغم الاتفاق الذي كان بينه وبين أبيه شيرويه على تنصيبه. وفعلاً تحالفت قوات القائد الفارسي شهرباراز مع القوات البيزنطية وقاموا بقتل أردشير بعد أن حكم عاماً ونصف عام فقط<sup>(٤)</sup>.

وبعدها بدأ العد التنازلي للعرش الفارسي السلسلة من الأكاسرة وفوضى عارمة طوال

(١) راجع عن ذلك تفصيلاً، كريستنسن، من ٤٥٧، ٤٧٤ - ٤٧٧ وكذلك الكرديزي، زين الأخبار، ج١، ص ٥٧.

(٢) تجمع المصادر أنه مات بمرض الطاعون.

الكرديزي، المصدر السابق، ص ٥٧، كريستنسن، المرجع السابق، ص ٤٧٨، محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ٩٨، حيث تولى ابنه أردشير الثاني.

(٣) Ostrogorsky, op.cit., p. 98.

(٤) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٤٧٨.

حياة الإمبراطور هرقل حتى قيل إنه في نهاية عهد هذه الأسرة وفي خلال أربع سنوات تولى عرش فارس عشرة ملوك على الأقل<sup>(١)</sup>.

ونريد أن نعرف الآن ما هو مصير بلدان الجزيرة الفراتية التي أصبحت الآن تحت السيادة البيزنطية الكاملة وخرجت من السيادة الفارسية، فقد أصبحت بلدانها مسرحاً للعمليات العسكرية، وأضررت الحروب بأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فلم تكن السياسة البيزنطية في مدن الجزيرة الفراتية أحسن حالاً من السياسة الفارسية، فقد كانوا يمارسون أساليب الظلم والابتزاز ضد الفلاحين حتى الأحرار منهم، وفرضت عليهم الإسهام في المشاريع العامة كشق الترع وبناء الجسور والمنشآت ونقل المحاصيل إلى مخازن الدولة وإطعام الجيوش المارة في مناطقهم<sup>(٢)</sup>. وقد أراد الله سبحانه وتعالى الخير السريع لهذه البلاد، وليكون بعد العسر يسراً، وذلك لأن البيزنطيين على عهد الإمبراطور هرقل لم يهنأوا بثمرة انتصاراتهم واستعادتهم لأرضهم ولاياتهم وللبلاد الخاضعة للنفوذ الفارسي، وذلك لأنه تزامن مع عهد هرقل ظهور قوة جديدة بالجزيرة العربية قوة عظمى هي قوة الإسلام الذي تكونت له دولة ثابتة الأركان بالمدينة المنورة، واستقرت الدعوة بعد فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة المكرمة ودخول القبائل العربية في الإسلام.

هذه القوة الجديدة قلبت ميزان القوى العالمي وضربت هاتين القوتين العظيمين بقوة الإسلام، حيث بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة السلمية للقوى الدولية المعاصرة، ولما لم تستجب، صدع لأمر ربه بإذاعة الإسلام ونشره للناس كافة، فكانت حركة الفتوحات الإسلامية على عهد خلفائه الراشدين حيث سقطت دولة الأكاسرة تماماً وانحلت ودخلت جميع أملاكها في نطاق الدولة الإسلامية. أما الدولة البيزنطية فقد انحسرت في حدود ضيقة وضاعت منها ولاياتها، وأهمها بلدان الجزيرة الفراتية التي تحولت إلى بلدان تدين بالطاعة للدولة الإسلامية.

#### أولاً: المصادر العربية

ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبى، ت. ٣٨٠هـ،

(١) المرجع السابق، ص ٤٨٠.

(٢) ييغوليفسكيا، العرب على حدود بيزنطة، ص ٢٦٧.

صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م.  
 الإدريسي، أبو عبد الله محمد، ت. القرن السادس الهجري،  
 نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، سنة ١٩٨٩م.  
 الكرديزي، أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك، ت. ٤٤٢ - ٤٤٣هـ، زين الأخبار،  
 ترجمة عفاف السيد زيدان، القاهرة، المطبعة المحمدية، ط ١، سنة ١٩٨٢م.  
 المسعودي، أبو الحسن على بن الحسين بن على، ت. ٣٤٦هـ، مروج الذهب ومعادن  
 الجوهر، تحقيق محمود محيى الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة، القاهرة، ١٩٦٤م.  
 ياقوت الحموي، أبو عبد الله، ت. ٦٢٦هـ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت،  
 ١٩٧٨م.

### ثانياً : قائمة المراجع العربية والعربية

أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٤،  
 سنة ١٩٥٧م.  
 أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم، بيروت، ١٩٥٥م.  
 بيغوليفسكيا، نينا فيلوتورفنا، العرب على حدود بيزنطة وإيران، ترجمة صلاح الدين  
 عثمان، الكويت، ١٩٦٤م.  
 جواد على، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٨.  
 جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الدولة البيزنطية، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٨٨م.  
 جيون، إدوارد، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد عبد  
 الهادي أبو ريده، القاهرة، ١٩٦٩م.  
 زبيدة عطا، الدولة البيزنطية من قسطنطين إلى أنستاسيوس، القاهرة، دار الفكر  
 العربي، ط ١، ١٩٧٧م.  
 سعاد بنت أحمد العمري، الجزيرة الفراتية من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر  
 الأموي، دراسة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية  
 الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، سنة ١٤١٦هـ.  
 السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب، عصر ما قبل الإسلام، ج ١،

الإسكندرية، ١٩٦٧م.

كريستنس "أرثر"، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، لجنة التأليف، ١٩٥٧م.

ليسترنج، كى، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرانسيس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

ليل عبد الجواد إسماعيل، الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور هرقل، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م.

محمد بيومى مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط٣، ١٩٨٢م.

محمد عبد القادر محمد، إيران منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامى، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ط١، ١٩٨٢.

محمد فتحي الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٩م.

نولدكه، تيودور، أمراء غسان من آل جفنة، ترجمة قسطنطين رزيق، ويندلى خورى، بيروت، ١٩٣٣م.

هسى، ج.ع، العالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبد الحميد، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٢م.

#### المصادر الأجنبية

Barker, G.P.,

**Justinian and the later Roman Empire**, London, 1966.

Baynes, and Moss,

**Byzantium**, Oxford, 1953.

Bury, J.B.

**History of the later Roman Empire**, London, 1923.

**Cam, Med. Hist. Vol. XII.**

Diel, C.

**Buzantium, greatness and decline**, T. from French, by Naomi Walford, New Jersey, 1957.

Gibon, E.

**The decline and Fall of the Later Roman Empire**, London, 1911.

Jones, A. H. M.

**The later Roman Empire**, Oxford, 1973.

Ostrogorsky, G.

**History of the Byzantine State**, Oxford, 1956.

Procopius of Caesarea,

**History of Wars**, T. H.B. Dewing, New Yor, 1914 – 1945.

Stratos, A. N.

**Byzantium in the seven the century**, Amster dam, 1968.

Vasiliev, A. A.

**History of the Byzantine empire**, Madison, 1964.

\* \* \*